دراســـات فى الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

الأدب الموضوعى نقد وتاريخ

رأينا فيما تقدم أمثلة من الأدب الموضوعى، ورأينا بعض هذه الأمثلة يتناول قطعة من الأدب ليبيّن ما فيها من عيوب ومزايا؛ ورأينا أمثلة أخرى تبيّن مناهج الكلام البليغ، وتوضح مزايا هذا الكلام فى معانيه وألفاظه وأساليبه. وقلنا إن هذه الأمثلة وما يشبهها تسمى نقداً. ثم وجدنا أمثلة غيرها تقصد إلى تبيين أطوار الكلام فى العصور المتتابعة وإيضاح أسبابها، وقلنا إن هذه الأمثلة وأشباهها تُعدّ من تاريخ الأدب

وهنا نُجمل الكلام فى النقد الأدبى وتاريخ الأدب

١ — النقد الأدبى (١)

نقد الكلام تبيين مزاياه وعيوبه، وتمييز جيّده من رديئه

يقال: نقد الكلام وانتقده على قائله، وهو من نقدة الشعر ونقّاده ... الخ (٢)

٢ — نشوء النقد وتطوره

النقد طبيعى فى الإنسان، ينشأ من استحسان الشىء أو استهجانه. ويزيد الناس اهتماماً به اختلاف الأذواق فى تقدير الشىء الجميل والقبيح، وتفاوت الإدراك فى معرفة الصواب والخطأ، ويعظم الخلاف فى دقائق الأمور التى لا يُبينها حسّ واضح أو إدراك بيّن، وكلما دقت المسألة عُسر الحكم فيها وكثر الخلاف؛ وكلما كثر الخلاف كان النقد أصعب، وكان على صعوبته ألزم. والنقد يكون فى العلوم، والصناعات، ويكون فى الآداب. وهو فى هذه أغمض وأعسر لأن الآداب لا يرجع فيها إلى الحس أو العقل ولكن إلى العاطفة والذوق، وهما من الأمور النفسية يصعب تحديدها ويكثر الاختلاف فى أحكامهما

والنقد يكون فى مبتدئه أحكاماً لا يدعمها برهان ولا يُوضحها بيان، ثم تتناقض الأحكام، وتتصادم الآراء، فيذهب كل ناقد يفسر رأيه، ويقيم حجته، على قدر ما يواتيه فكره، ويعده ذوقه، حتى ينتهى الجدال إلى أمور مسلمة ومقاييس محدودة يحتكم الناس إليها فيتفقون. وربما ينتقل الخلاف من المسائل الجزئية التى يختلفون فيها إلى المقاييس الكلية التى يقيسون بها؛ يختلف اثنان فى وزن شىء أو طوله فيعمدان إلى الميزان أو الذراع ليعرفا الصواب فيما اختلفا فيه، وربما يقع الخلاف فى صنجة الميزان أو فى طريقة الوزن أو فى الذراع أو طريقة الذرع.

وكذلك الأمور المعنوية، يقع فيها الخلاف فيرجع المختلفون إلى قواعد يتفقون عليها، وربما يختلفون فى القواعد نفسها. يقول واحد: هذا حسن، ويقول آخر: بل هو قبيح، فيرجعان إلى القوانين التى يعرف بها الناس الحسن والقبيح، يقول أحدهما: حسن لأنه نافع، ويقول الآخر: قبيح لأنه ضار، ثم يعرفان أنه نافع أو ضار فيتفقان. وقد يتمادى الخلاف بينهما فى المقياس نفسه، فيقول أحدهما: كل نافع حسن، ويقول الآخر: ليس كل نافع حسناً، ليس مقياس الحسن والقبح هو النفع والضر بل قبول النفس أو نفورها أو اللذة والألم. فإن لم يتفقا على مقياس الحسن والقبح استمر الخلاف بينهما

كذلك الأدب: يسمع أحد الناس قصيدة فيستحسنها ويطرب لها ويخالفه آخر؛ فيقول الأول: ألفاظها مألوفة سلسة حسنة النغمة، ومعانيها جميلة فيها سمو بالنفس ولها أثر فى القلب، وكثير

---

(١) لا نقصد فى هذا المقال استيعاب الكلام فى النقد، ولكن نريد أن نصوره للقارئ فى أيسر الصور وأقربها

(٢) وأما المعنى اللغوى للكلمة فقد جاء على الأضرب الآتية ويمكن ترتيبها على النسق الآتى لتمثل استعمال الكلمة بين أولى معانيها اللغوية ومعناها الاصطلاحى:

١ — نقد الطائر الحب ينقده إذا لقطه واحدة واحدة

٢ — نقد الشىء ينقده إذا ضربه بأصبعه كما تنقر الجوزة

٣ — فى حديث أبى ذر: فلما فرغوا جعل ينقد شيئاً من طعامهم، أى يتناول يسيراً منه

٤ — نقد الدراهم نقداً: ميز زائفها من جيدها

٥ — فلان ينقد فلاناً بعينه: يديم النظر إليه خلسة

٦ — ناقدت فلاناً ناقشته

٧ — نقد الناس عابهم. وفى حديث أبى الدرداء: إن نقدت الناس نقدوك، وإن تركتهم تابوك

منها مخترع . ويخالفه الثانى فيما زعم للألفاظ والمعانى من أوصاف فيقول: ليست الألفاظ مألوفة سلسة ، أو يوافقه على أنها كما قال ولكن يدعى أن الألفة والسلاسة ليست مقياس الجمال أو البلاغة؛ فإما أن ينتهيا إلى مقياس يرضيانه فيتفقان ، أو يتمادى بينهما الخلاف

وفى البحث عن المقاييس والاتفاق عليها أو الاختلاف فيها يكون تطور النقد الأدبى وتشعب مذاهبه ، ووضوح مناهجه ، واستناده إلى براهين تتفق فيها المعرفة الواسعة والذوق المهذب والحس المرهف

٣ — ضروب النقد

وفى النقد الأدبى ضروب منها :

١ — نقد الجزئيات، وهو نقد قطعة من النثر أو الشعر بالنظر فى ألفاظها وتبيين أنها مما عرف فى اللغة ، وأنها موافقة للصرف والنحو ، وأنها مألوفة غير مبتذلة ، وأن وزنها ، إن كانت من الشعر ، صحيح لا خلل فيه — أو بالنظر إلى معانيها وتبيين أنها غامضة أو واضحة ، وقيمة أو تافهة ، وطريفة أو مبتذلة ، ومخترعة أو مسروقة ، وأن التصوير فيها وان بالمقصد أو مقصر عنه ، وأن مجازاتها واستعاراتها حسنة أو قبيحة ... وهلم جرًا

٢ — وقد يتناول النقد شاعراً أو كاتباً ؛ فيقال إنه ركيك الألفاظ أو غامض المعانى أو مستهجَن الموضوعات أو متكلِّف لا يصور الطبيعة أو سراق غير مخترع

٣ — وربما يكون النقد أوسع من هذا فلا يتناول قطعة أو شاعراً بعينه ، بل يتناول طرائق البيان ومناهج البلاغة ؛ فيقال: ينبغى أن تُؤلَّف الألفاظ على أسلوب كذا ، وأن تحرر من السجع والصناعة ، وينبغى أن تكون المعانى بيِّنة قريبة من المخاطب ، وينبغى أن يطول الكلام أو يقصر على قدر المقام وهكذا

٤ — وأحياناً يسمو النقد فوق هذا كله وينظر إلى الأدب ومقاصده عامة فيتناول مسائل كالمسائل الآتية : هل للأديب أن يطرق كل موضوع ، أو هو جدير بأن يتناول موضوعات سامية لا يتناولها العامة ؟

هل على الأديب أن يلتزم الأخلاق والآداب فيما يكتب أو هو حرّ فيما يُبين غير مطالَب إلا بالإجادة فى بيانه ؟

هل الحق والصدق من أسس البلاغة أو يكون الكلام بليغاً وهو كذب وباطل ؟

هل للأديب مقصد فيما يكتب ، أو هو كالزهرة تنشر الرائحة العطرة بطبعها لا تبغى وراء هذا شيئاً ؟

وهذه المباحث أعمق مباحث النقد وأوسعها وأعظمها جدوى لأنها تتناول وجهة الأدب ومقاصده وموضوعاته ، تعمد إلى سُبُل الأدب تبيِّنها وتوضحها ليكون الأديب على بينة من غايته وسُبله قبل أن يسير ، فلا يعتسف الطريق ولا يضل دون الغاية

٤ — النقد فى الأدب العربى

أما النقد اللفظى الذى يرجع إلى متن اللغة والنحو والصرف والعروض فالأمر فيه يسير لا يحوج إلى شواهد ، وهو واقع فى كل زمان يشترك فيه الشادون والمنتهون . ويُرى فى كتب الأدب كثير منه ؛ وقد كتب فيه الحريرى كتابه « درة الغوّاص فى أوهام الخواص »

وأما نقد الألفاظ من حيث سلاستها أو تنافرها وألفها أو غرابتها ونحو هذا ففى كتب الأدب والبلاغة مباحثه وشواهده

والنقد المعنوىّ عرفه العرب فى كل عصور الأدب حتى العصر الجاهلى ولكنه كان أول الأمر نقداً مُبهماً غير معلَّل كقولهم : فلان أشعر ، وهذه القصيدة أحسن ؛ أو نقداً لمعان جزئية أحسن فيها القائل أو أساء

ثم حاول العلماء منذ القرن الثانى أن يصفوا طرائق البيان ، ويحدّوا حدوده ويبينوا معالمه فكتبوا فى البيان وأكثروا ودعموا دعاويهم بكثير من المنظوم والمنثور

ونجد النقد عندهم مفرّقاً فى الكتب الآتية وأمثالها :

١ — كتاب البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥

٢ — كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٥

٣ — الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢

٤ — كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري للحسن بن بشر الآمدي المتوفى سنة ٣٧٠

٥ — كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦

٦ — كتاب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١

٧ — كتاب المثل السائر في أدب الشاعر والناثر لضياء الدين ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧

تناول هؤلاء البيان من جهاته المختلفة ألفاظه ومعانيه وأساليبه وحاولوا جهد الطاقة أن يبينوا النهج للبلغاء ويصفوا القواعد التي يبنى عليها الكلام البليغ

ولكن نُقادنا لم يتناولوا المباحث العامة التي تبين وجهة الأدب ومقاصده، وموضوعاته وصلة الكلام بقائله وصلة القائل ببيئته

وقد عني بهذا الأوربيون منذ عصر النهوض، وتوسع فيه الفرنسيون منذ القرن السابع عشر الميلادي حتى نبغ منهم في القرن التاسع عشر ثلاثة يُعدّون أئمة النقد الأدبي حتى اليوم. وهم:

١ — سنت بوف[1] وأساس مذهبه معرفة الصلة بين الأدب ونفس الأديب، وجعل النقد تاريخاً للعقول والأنفس يتعرفها في آثارها ويكشف عن خباياها

٢ — تين[2] ومذهبه يعني كثيراً بمعرفة البيئة التي نشأت الأديب ليتوسل بها إلى معرفة الأديب نفسه

٣ — برنتيير[3] ومذهبه أن البلاغة قائمة على التدرج والتطور كالحيوان والنبات وعمل الناقد هو تتبع هذه الأطوار

عبد الوهاب عزام

(١) Saint Beufe (١٨٠٤ — ١٨٩٦)

(٢) Taine ١٨٢٨ — ١٨٩٣)

(٣) Ferdinand Brunetiére (١٨٤٩ — ١٩٠٧)

١٢ ٠ ٢٩

إنني تعبـــة!

للشاعرة أيمي هوبلر ولكس

إنني تَعِبة الليلة، وهناك شيء — لست أدري على وجه التحقيق ما هو. ولعلّه هزيم الريح أو دوي المطر في جنح الدجى، أو لعله تصايح الطير على الأيك من كل جانب في الخارج

هناك شيء، أجد لشجوه أمثالاً تستخرج وجدي، وتبعث أساي من بعد هجومه، وتعيد إلى الماضي السحيق وأحزانه وآلامه

فأشعر، وأنا أجلس هنا متأملة مفكرة، أن يد شهر مدبر، من شهور يونية التي خلت ولم يبق من عهدها السعيد إلا التذكر، تمتدّ الآن إلى أوتار قلبي المرنحة، وتشدّها، وتصلح وحدة أوزانها، وتحكم انسجام اهتزازاتها

إنني تعبة الليلة، وإني لأفتقدك، وأحنّ إليك يا حبّي، وأشتاقك شوقاً أكتمه جهدي... ومن خلال الدموع أحسب أنني أراك، وكأنك تمضي اليوم فقط مع الذاهبين إلى ربهم

مع أن الزمان قد مدّ خطاه الواسعة في مهامه مترامية، وتجاوز عموداً عديدة وأعواماً مديدة مذ فارقتني، وكأني أستشعر الانفراد والوحشة من جديد... أنا التي كثيراً ما أحيا في عزلة وحدي، وها هي ذي أوتار قلبي المشدودة تدعو الهديل

ولكن هيهات أن يجيبها منوط بأطراف الجناح رميم... هيهات أن يطربها باللحن القديم الحلو الرنان

إنني تعبة، وذلك الحزن العصيّ الذي كرّت عليه الأعوام، يثور دفعة واحدة على غير انتظار، وإن ثورته الهائلة لتحدث فيه ثلمة واسعة تتدافع منها الآلام، وتنحدر بقوة إلى قاع نفسي كما يتحدر بغتة تيار نهر هائج من ثغرة في حواجزه وينفجر كطوفان متدافع لا تقوى عليه السدود، فيجرف في طريقه كل شيء، ويكتسح في لجه الزبد، وثبجه المرغى بقايا سفينة محطمة لها شراع ناصع البياض، وإن تلك اليد لتهوي ثقيلة على أوتار قلبي المشدودة وتحركها بريشتها في عنف لتكتسح منها الأنغام

ولكن يخيل إليّ أن أوتار عواطفي التي تلاشى رنينها مع الزمان عادت تطنطن وتدوّي بعد ذلك الأمد الطويل بفعل تلك اللمسات العنيفة التي تحاول أن تجدد وقع اللمسات الأولى الرقيقة، بيد أن النغمات التي تفرّ من تحت الأنامل المحركة الأوتار لا ترجّع غير صوت النواح والعويل، وصدى الحسرة والأنين

الزهرة